من آيات الله

فى خلق الإنسان

قال تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

والمتأمل فى قضية خلق الإنسان كما جاء بها القرآن الكريم يجد أنها تلتقى مع العقل فى كل طور من أطواره صعوداً أو نزولاً.

ففى القرآن عشرات من الصور التى خرج بها الإنسان إلى هذا العالم، وهذه الصور وإن اختلفت مظهراً، فإنها تلتقى جميعاً فى مضمونها ومحتواها.

فالعقل فى أدنى مستوياته، يلتقى مثلاً مع قوله تعالى فى سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وتلك حقيقة لا يتعلى عليها العقل فى أعلى منازله، ولا يستغنى عن الأخذ بها، فإذا ترقى العقل شيئاً كان له لقاء آخر مع قوله فى سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

ثم ما يزال العقل يلتقى مع آيات الله آية آية، فيجد فى كل آية منها لوناً جديداً تزداد به الصورة وضوحاً وعمقاً. ومن هذه الآيات قوله تعالى فى سورة المرسلات. ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات ٢٠: ٢١]. وقوله تعالى فى سورة نوح: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]. وقوله تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. وقوله تعالى فى سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن

﴿صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]. وقوله تعالى فى سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

فهذه الآيات وكثير غيرها مما جاء فى خلق الإنسان تضع العقل أمام قضايا ومقررات، كلها تتحدث عن خلق الإنسان وبعضها واضح جلى، يعرف بأدنى نظر، وبعضها دقيق خفى لا ينال إلا بنظر دقيق، وإدراك سليم، مع قدر كبير من العلم والمعرفة، مع هذا فإن التقاء هذه الآيات فى أى عقل مؤمن لا يحدث صداماً بينها، ولا يدعو إلى انفصال فى وحدتها، وذلك بحمل الخفى عليه منها على الجلى، والمتشابه عنده على المحكم. ثم يبقى مع هذا للعقل على امتداد الزمن فكانه من الآيات الخفية، ينظر فى وجهها، ويدور باحثاً عن أسرارها.

وفى كل يوم يجد العقل من هذه الآيات جديداً من العلم، ومزيداً من المعرفة، وكثيراً من الأسرار. وإذا التراب، والطين، والصلصال، والحمأ المسنون، والماء، والنبات، وكل هذه المواد التى تحدث عنها القرآن فى خلق آدم، هى العناصر التى شكلت هذا المخلوق العجيب، والتى أقام منها الخالق العظيم، هذا البناء فى أحسن تقويم..

روى عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض. فجاء بنو آدم على قدر الأرض؛ جاء منهم الأبيض، والأحمر، والأسود، وبين ذلك، والخبيث، والطيب، والسهل، والحزن، وبين ذلك».

والمراد بالخلق من تراب: إنتهاء خلقة الإنسان إلى الأبيض. فإن مراتب تكوُّن الإنسان من مضغة، أو علقة، أو نطفة، أو غيرها مركبات أرضية، تنتهى إلى العناصر الأرضية.

قال تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وإذا كان الطين هو الأصل البعيد للإنسان فإن الله سبحانه وتعالى يذكر هذا الأصل، ويَعقبه مباشرة بصورة البشر، منتشرين، متحركين، للمقابلة فى المشهد والمعنى، بين التراب الميت الساكن، والبشر الحى المتحرك.

﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ وإذا فى قوله تعالى: ﴿ **إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ فجائية أى يفاجئكم أنكم أناسى تنتشرون فى الأرض، أى يخلقكم من تركيبات أرضية، المترقب منها كينونة أرضية ميتة أخرى مثلها، لكن يفاجئكم دَفْعَةً أنه يصيركم بشراً ذوى حياة وشعور عقلى تنتشرون فى الأرض، فى سبيل تدبير معنى الحياة.

قال تعالى فى سورة فاطر: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [فاطر: ١١].

والإسلام الحنيف يطلب من الإنسان أن يمعن النظر فى خلقه هو، ويتفكر فيما حوله. قال تعالى فى سورة الطارق: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ** ﴾ [الطارق: ٥]. ويخبر القرآن أن الله خلقه من ماء مدفوق: ﴿ **خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ** ﴾ [الطارق: ٦-٨].

ولما جعله الله علقاً ثم خلقاً، فيه روح وقوة، جعل منه الزوجين ، وجعل بينهما مودة ورحمة. وأنجب منهما البنين والبنات. يقول رب العزة فى سورة القيامة: ﴿ **أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ** ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩].

فالإنسان العاقل هو الذى يفكر فى كل هذا، ومن فكر عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

وآيات الله واضحة فى خلق الإنسان، من نطفة، وعلقة، ومضغة، وعظم، ولحم، وروح. وحسب الناس القلوب، وما ركز فيها من العقول ، وما خصت به من أنواع المعانى. وحسب الناس كذلك الألسن، والنطق، ومخارج الحروف،

والأبصار، والأطراف، وسائر الجوارح، وتأتيها لما خلقت له، وما سُوى فى الأعضاء من المفاصل.

فإذا هدى الفكر إلى كل هذا فى مبدأ خلق الإنسان، سهل أن نصدق بما جاء به الشرع، وهو البعث فى اليوم الآخر، لأن خلق الإنسان من أجزاء منتشرة متفرقة فى الكون. فالماء متولد من الأطعمة التى يتناولها الإنسان فجمعها الله، ثم جمع الأبوين، ثم جمع ماءيهما فى مكان واحد، ثم خلق منه الولد.

وليس فى إعادته مثل ذلك فهو أهون. فالذى قَدِر على خلق الإنسان ابتداءً من هذه المادة، قادر على أن يرده حياً بعد أن يموت.

والمتأمل فى الآيات التى تتحدث عن الإنسان، يجد أن الإسلام الحنيف يدعونا إلى إعمال الفكر فى هدوء، وإمعان التأمل فى بصيرة، سيما فى القضايا الجوهرية التى تمس حياة الإنسان ووجوده، ومصيره..

وإذا نظرت تريـــد مُعْتَبَـراً فانظر إليك ففيك معتبر
أنت الذى تمـمـى وتصبح فى الدنيـا وكل أمـوره عبـر

* * *